دكتور
عبّاس علي السّوسُوَة

فقه اللغة والثقافة العربية



فقه اللغة والثقافة العربية

فقه اللغة والثقافة العربية

دكتور
عباس علي السُّوسُوَة
أستاذ اللسانيات بجامعة تعز



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر اعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ادارة الشئون الفنية

السوسوة، عباس علي.

فقه اللغة والثقافة العربية / عباس علي السوسوة. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨

١٦٠ ص ١٨٠ سم

تدمك ٣ - ٠١٦ - ٤٦٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - فقه اللغة العربية

- العنوان ٤١٠

الكتـــاب : فقه اللغة والثقافة العربية.

المؤلـــف : عباس علي السوسوة

رقم الإيداع : ٢٢٩٣٧ / ٢٠٠٨

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

الترقيم الدولي : 3 - 016 - 463 - 977 - 978

الناشـــر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع: ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

ت ٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٢٧٩٥٤٣٢٤

التـــوزيـــع : دار غريب ٣٠ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة

ت ٢٥٩٠٢١٠٧ - ٢٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم: ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت ٢٢٧٣٨١٤٢ - ٢٢٧٣٨١٤٣

www.dargharceb.com

فصحاء من الجاهلية حتى القرن الثالث عشر بعد الهجرة

(١)

من الحق الاعتراف أن هذه الأسطورة أقل انتشارًا بين اللغويين العرب المحدثين من الأساطير السابقة لكنها موجودة على كل حال عند علماء محترمين، مدققين أحيانًا، وفي هذه غير مدققين. مفاد الأسطورة: أن قومًا من اليمن ظلوا محافظين على لغتهم العربية الفصيحة المعربة من الجاهلية طوال القرون، ويزداد العجب أنهم يسكنون منطقة قرر اللغويون القدامى عدم فصاحتها! فهلم بنا أيها القارئ الكريم لنبدأ بتتبعها منذ بدايتها التي لا يعرفها المحدثون.

بدأت بالشاعر عمارة بن علي بن زيدان الحكمي اليمني (٥١٥-٥٦٩هـ)، المولود في إحدى مناطق تهامة باليمن، والوافد إلى مصر عام ٥٥٠هـ أيام الفاطميين، فكان ممن مدحهم وزراءهم وعمالهم وحلفاءهم، ثم عاد إلى الحجاز فاليمن، وبعد ذلك عاد إلى مصر ثانية عام ٥٥٢هـ فاستوطن ديار مصر نهائيًا بقية حياته إلى مقتله بداية العهد الأيوبي بتهمة تدبير مؤامرة لإعادة الخلافة الفاطمية[١] . وقد ترجم لنفسه ولأسرته في كتابيه: تاريخ اليمن، والنكت العصرية، وإليهما سنشير بالعنوان مختصرًا[٢] .

قال في تاريخه (سنقسم ما يهمنا منه إلى أرقام):

«١- (...) الزرائب من أعمال ابن طرف وهو الوطن الذي ولدت فيه (...).

---

(١) انظر في تفصيل ذلك، ذو النون المصري: عمارة اليمني، القاهرة: النهضة المصرية ١٩٦٦م، ص ٢٦، ٤٢، ٤٦، ٤٧ . والكتاب أصله رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٤٠م

(٢) عمارة بن علي اليمني: تاريخ اليمن المسمى: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق (١) محمد بن علي الأكوع، القاهرة ١٣٨٥هـ . (وهي سطو على طبعة الإنكليزي كاي، ونزيد عليها بالثرثرة الطويلة في الحواشي)، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق: هرتويغ درنبورغ، شالون: مطبع مرسو ١٨٧٩م .

٢- وجبل عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم .

٣- ولم تتغير لغتهم؛ بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحة ولا مساكنة . وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه .

٤- ولقد أذكر أنني دخلت زبيد في سنة ثلاثين وخمسمائة أطلب الفقه وأنا يومئذ دون العشرين، فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن بشيء من الكلام. فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي باللّه القدير: لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة. فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت إذا لقيته يقول: مرحبًا بمن حنثت في يميني لأجله!

٥- ولمّا زارني والدي وستة من إخواني إلى زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم، فلا والله ما لحن أحدهم لحنة واحدة أثبتوها عليه!»[١] .

ويقول في النكت العصرية:

«١- وأما الوطن فمن تهامة باليمن مدينة يقال لها: مرطانة من وادي وساع، وبُعدها من مكة في مهب الجنوب أحد عشر يومًا، وبها المولد والمربى.

٢- وأهلها بقية العرب في تهامة؛ لأنهم لا يساكنهم حضري، ولا يناكحونه، ولا يجيزون شهادته، ولا يرضون بقتله قَوَدًا بأحد منهم. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد.(!)»[٢] .

ونلاحظ على النصين ما يلي:

أولاً: غلبة روح المغالبة التي توصل إلى الكذب .

---

(١) تاريخ اليمن لعمارة، ص ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) النكت العصرية ٧ . وانظر في التوفيق بين أسماء الأماكن المتعددة محاولة ذو النون المصري: عمارة اليمني، ص ٢٧ حيث جعلها من قبيل العام والخاص.

ثانيًا: إن قومًا هذا شأنهم في الفصاحة، موجودين في وسط غير فصيح من كل جانب لابد أن تكون فصاحتهم قد طبقت الآفاق شهرةً، لا في القرن السادس فحسب، بل في القرون السابقة على السادس. ولكانوا محجة لكل طالبي اللغة، لكنا نسمع عنهم أول مرة عند صاحبنا وحده .

ثالثًا: هناك لغويون لهم علاقة باليمن إما استيطانًا أو رحلةً كابن دريد في القرن الثالث، والفارابي صاحب ديوان الأدب في الرابع، والربعي في الخامس. ثم نشوان الحميري في السادس، والصغّاني في السابع، وهؤلاء جميعًا لم يشيروا بشيء إلى هؤلاء القوم المعجزة .

رابعًا: من الواضح - إذا جارينا الشاعر في زعمه - أن قومه - وأسرته أيضًا- عندهم حساسية لغوية، تتقاصر دونها حساسية أعضاء الأكاديمية الفرنسية في القرن العشرين الميلادي.

خامسًا: هؤلاء القوم عنصريون لا يختلطون بغيرهم في كل الأحوال التي تستدعي اجتماع البشر بعضهم ببعض، أعني: الزواج والجوار والسكن .

سادسًا: لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الضحك عند قراءة قوله عن الغريب: «... ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قَوَدًا بأحد منهم. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد». فإذا كانوا منعزلين متوحشين خائفين على لغتهم، فكيف يحدث الاحتياج إلى شهادة الغريب؟ ناهيك عن أنّ أحدًا سيقتل فردًا منهم عامدًا ليقتص منه؟ ولا أدري كيف ستحدث حادثة قتلٍ للغتهم!

سابعًا: هؤلاء القوم قد وصلوا إلى مرحلة من الاكتفاء الذاتي لم تصلها جمهورية الصين الشعبية أيام ماوتسي تونغ .

ثامنًا: لغة عمارة النثرية لا تؤيد زعمه، فهي ركيكة إذا قيست بلغة الطبري أو عز الدين بن الأثير .

تاسعًا: بعض ما أورده من قصص عن قومه، وفيه جانب من لغتهم، يَنفي هذه الفصاحة، فمن ذلك ما أورده عن رجلٍ يحاكم زوجتهُ أمام عمه، وكيف

أن الرجل زعم أنه أفضل من المرأة، فلما سألت عن السبب قال: لأني أبول فيك. فردّت عليه: «إنما فخرتَ باستين يلتقيان واستك أول منهزم فيهما»[١] ويمكِن الرجوع إلى المعاجم القديمة مادة (ا س ت) للنظر في هذه الفصاحة!

(٢)

وبقي أن نتساءل: ما دافع عمارة إلى هذا الزعم بفصاحته وفصاحة أسرته ثم أهل موطنه؟ والجواب أن الرجل نشأ في موطن فقير زراعيًا، مجدب في أغلب الأعوام، يعيش أهله في مستوى الكفاف أو أدنى. فانتقل إلي مصر حاضرة الخلافة الفاطمية، فبهرته مظاهر الحضارة في شتى مناحي الحياة، ناهيك عن نهر النيل دائم الجريان. فإذا ضمه - هناك - مجلس مع رجال دولة أو علماء أو شعراء وطُلب منه أن يحدثهم فإنه لا يستطيع قطعًا أن يتحدث عن أنهار جارية في موطنه، أو عن حدائق وزهور، أو عن مبانٍ وقصور، فلم يبق إلا أن يتحدث عن فصاحة اللغة التي يتحدثها هو وقومه سليقةً في حين يستعملها رفقاء المجلس في مصر كتابةً بعد تعلمها صناعةً. ولا ننسى أنه ألف (تاريخ اليمن) بناءً على اقتراح القاضي الفاضل (٥٦٣هـ)[٢] . وربما عيّره بعض الكتاب والأدباء من أن قومه في اليمن يسمون العين جحمة، والذئب قلّوبًا، والأصابع شناتر، والأذن صنارة، وهذه تسميات مخالفة لما في الكتاب الكريم، وقد ورد مثل هذا في المفاخرات بين بعض اليمنية والتميميين أمام أبي العباس السفاح، حيث قيل عنهم: «إنهم كانوا بين ناسج برد، وسائس قرد، ودابغ جلد، وراكب عَرد. دل عليهم هدهدُ، وغرّقتهم فأرة، وملكتهم امرأة»[٣] .

---

(١) النكت العصرية ٧ وراجع ص ٦٦ - ٦٧ تجد تانيث الرأس، والرأس مذكر .

(٢) تاريخ اليمن ٣٦ .

(٣) انظر: الجاحظ: البيان والتبين ١ / ٣٣٩، والتوحيدي: البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، بيروت: دار صادر ١٩٨٨، جـ٦ ١٦٩، والبيهقي: المحاسن والمساوئ، بيروت، ص ١٥٩، وانظر في جمهرة اللغة مواد (صنر) و(شتر)، و(جحم)، و(قلب)، وبعضها منقول عنه في لسان العرب .

ومما يؤكد صفة الافتعال في هذا الزعم أنه نقل عن جده زيدان بن أحمد قوله: «أنا أعدّ من أسلافي أحد عشر جدًا، ما منهم إلا عالم مصنّف في عدة علوم!!»[1] (علامة التعجب من عندنا). وجده المزعوم وأجداده الأحد عشر، لم نسمع عنهم ولا عن تصنيفاتهم في العلوم المختلفة إلا منه في هذه الإشارة. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فلو فرضنا أن بين الجدّ ومن قبله خمسين عامًا، وزيدان هذا من مواليد القرن الخامس، لكان الجد ذو الرقم [١] سابقًا لنزول القرآن الكريم أو معاصرًا له إن تسامحنا. وهذا يعني تعديل رأينا - نحن المحدثين - في أوّليات التصنيف باللغة العربية. وسامح الله المرحوم محمد فؤاد سزكين! كيف غفل عن هذا الخبر المهم فلم يعتمده في كتابه (تاريخ التراث العربي)، ولا رحمة على كارل بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) لأنه مستشرق!

(٣)

وبعد عمارة نجد ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) يذكر في معجمه بعض هذه المناطق وينقل عنه دون أن يصرح بالنقل. ففي (الزرائب) يقول: «الزرائب: بُليد في أوائل اليمن من ناحية زبيد، وإليه ينسب عمارة اليمني الشاعر فيما قبل»[2].

وفي موضع آخر يقول: «عكوتان... وهو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن، من أحدهما عُمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر، من موضع فيه يقال: الزرائب (!)... وجبَلا عَكاد: فوق مدينة الزرائب. وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم. لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه»[3].

لا يشرف على زبيد جبال أصلا

(١) النكت العصرية ٨.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت: دار صادر جـ٣ / ١٣٦.

(٣) معجم البلدان جـ٤ / ١٤٣.

ونلاحظ أنه في الموضع الأول ذكره بصيغة التمريض (فيما قيل). أما في الموضع الأخير فنقل عن عمارة دون تصريح رغم أن العبارتين متطابقتان، وهو لا يعرف اليمن أصلاً، فإذا جاء من بعده ونظر فيما سطره ظنّه يتحدث عن مشاهدة، فتثبت هذه الأسطورة عنده .

أما المؤرخون اليمنيون التالون لعمارة، فلم يؤكدوا هذه الأسطورة ولم ينفوها، ويحمد لهم أنهم نصّوا على النقل من كتابه. ذكر بامخرمة (ت٩٤٧هـ) «قال أبو الحسن الخزرجي: وذكر عمارة في مفيده أنه ولد بقرية الزرائب، وهي في الناحية الشرقية من المخلاف السليماني. وذكر أن أهل تلك الناحية باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى عصره لم تتغير لغتهم، وذلك أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحة ولا مساكنة، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه»[١] .

وما نقله بامخرمة يطابق ما ذكره عمارة وياقوت كما هو واضح لكل ذي عينين، لكنه اكتفى بالنقل مجردًا من كل تعليق .

غير أن العُجب العجاب إنما جاء عن طريق صاحب القاموس المحيط (ت٨١٧هـ)، ثم عن طريق شارحه الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) في مادة (عكد)، يقول الأول: «... كسحاب: جبل قرب زبيد أهلها باقية على اللغة الفصيحة» اهـ. (!!!) ويزيد الثاني فيقول: «إلى الآن. ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفًا على لسانهم» اهـ .

ولا نريد التعليق على ما قالاه، غير أننا ننكره جملة وتفصيلاً، ونقول: إن الأول نقله من ياقوت دون أن يذكره، على عادته في هذا الشأن، خصوصًا أنه ذكر المواضع كعادته نهاية المادة، وهذه يجعلها أشبه شيء بالتحلية. فإن قلت: إن الفيروزآبادي سكن في زبيد، قلنا: نعم، سكن فيها، لكن السكن لا يلزم منه

(١) الطيب بن عبد الله بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، بعناية أوسكر لوفغرين، ليدن: بريل ١٩٣٦ جـ٢ / ١٦٥ .

التحرّي. وإلاّ فلـو كان صادقًا فلماذا لم يـنقل عنهم ماداموا فصـحاء؟ وكان هذا سيوفـر عليه كثيـرًا من العناء في تعقب صاحب الصـحاح في كل شاردة وواردة. وفوق هذا سـيجنبـه التصـحيف والتحـريف سواء الذي وقع فـيه هو أو وقع فـيه السابقون ونقله عنهم دون تبصر، بل سيعـفيه من تصفح الأسفار الستين التي زعم في المقدمة أنه رجع إلـيها في تأليف قاموسـه، فهؤلاء القوم قريبـون منه ويستطيع الرجوع إليهم متى شاء، وله في منصب قاضي القضاة أكبر تسهيل له في عمله .

وهذا الذي علقنا به سبـقنا إليه اللغوي الجليل الشدياق في غـير موضع من الجاسوس، قال: «ومع أن المصنف ألف كتابه في زبيد وزعم أن أهل جبل عكاد القريب منهـا باقون على العربيـة الفصيـحة (...) لم يتعنَّ لمشـافهتـهم والأخذ عنهم، بل قلما أسند شيئًا مما رواه إلى قائله وإن كان على غير القياس»[1] .

وفي موضع آخر يقول: «وبقي النظر في صحة هذا الخبر. إذ لا يحتمل أن اللغة العربية بقيت إلى عهد المصنف سالمة من اللحن، حتى إنهم اعترضوا على الجوهري لقوله : (ومـشافهـتي بها العرب العـاربة في ديارهم بالبادية)، والجوهري كـان قبل المصنف بنحو أربعـمائة سنة. غير أن الشارح أثبت قـول المصنف وزاد على أن قال: إلى الآن (...) خوفـًا على لسانهم. اهـ. يعني أنهم لا يَدَعون الغـريب يقيم عندهم أكـثر من ثلاث ليـال.[١] فـالعجـب من المصنف والشـارح لم يذكرا عـددهم ولا حسـبهم ولا نسبه .[٢] وتمام العـجب أنه لم ينبغ فيهم شـاعر فيصل إلينا من شـعره شيء .[٣] وأن المصنف لم يشافـههم كما شـافه الجوهري عرب زمـانه مع أنه كان قريبًا منهم. فياليته سألهم عن «تقيأت المرأة لزوجها»[2] .

---

(١) أحمد فارس الشدياق: الجاسوس على القاموس. قسطنطينية: مط الجوائب ١٢٩٩هـ ص ٨١

(٢) الجاسوس ص ٥١٤ ، والمعكوفان المرقمان [ ] من عندنا. والشـدياق يسخر من صاحب القاموس إذ أورد في (قاء) تقيأت [المرأة] لبعلها وألقت نفسها عـليه ولم يرد ذلك في الصحاح والعباب والأساس والمصباح وهذا تصحيف تفيـأت (بالموحدة)، صوابه ما جاء في اللسان: تفيأت المرأة لزوجهـا تثنت عليه وتكسرت له تدللاً، وألقت نفسـها عليه من الفيء والرجوع. وأنه بالقـاف تصحيف كما قال الأزهري انظر ص ٤١٠ ٤١١ من الجاسوس

وأقول: إن الشدياق لم يصل إليه ادعاء عمارة نفسه، بل خلاصتها الموجودة عند صاحب القاموس وشارحه. وهو على حق فيما ذكر جميعًا.

وهذا يدلك أن ديدن القاموس إنما هو النقل من تكملة الصغاني على صحاح الجوهري ثم من كتب البلدان وكتب الطب وبعض كتب الرجال، مع سبكها جميعًا بطريقته المختصرة المتخففة من الشواهد وإيراد الأقوال. ولو افترضنا جدلاً - ونقول جدلاً؛ لأنه لم ينقل عن هؤلاء الفصحاء شيئًا - أنه نقل بعض ما نقل عن تجربة لكانت مصيبة عليه. فقد ذكر في مادة (عدر) أن العدار - كغراب - دابّةٌ تنكح الرجال في اليمن ويخرج من نطفها دود!![1]، فهل صادفه وتأكد من هذا الكلام الغث؟

ونضيف إلى الفقرة (٣) من كلام الشدياق؛ أن ابن جني، معاصر الجوهري، يفرد في خصائصه بابًا سماه: «باب في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر. علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل. ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ من أهل الوبر. وكذلك أيضًا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها. وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا؛ لأنَّا لا نكاد نرى بدويًا فصيحًا»[2].

ومضى ابن جني يحكي قصة البدوي مدعي الفصاحة وكيف ارتكب أخطاء كثيرة مما أوجب نبذ لغته واطراحها[3].

(١) انظر (عدر) في القاموس، وتاج العروس. وانظر تعليق مطهر الإرياني في كتابه: المعجم اليمني في اللغة والتراث، حول مفردات خاصة من اللهجات اليمنية، دمشق ص ١٩٩٦ ص ٦٠٩.

(٢) ابن جني: الخصائص ٢ / ٥.

(٣) الخصائص ٢ / ٦ - ٨.

على أن الشيخ محمد علي النجار محقق الخصائص أفرد هامشًا مطولاً لهذا الخبر فنقل كلام القاموس في (عكد)، ثم كلام الزبيدي المتوفي ١٢٠٥هـ وكلام ياقوت في (عكوتان)، كأنه يؤيدهما في بقاء الفصاحة في تلك المنطقة حتى القرن الثالث عشر الهجري .

وذهب دارس خصّص كتابًا كاملاً عن التاج وصاحبه، إلى أن الزبيدي تلقى اللغة الفصحى من الأعراب الذين التقاهم في جنوبي الجزيرة وسمع منهم بعض ما يتعلق بأمور اللغة»[1] .

وجاء باحث آخر خصص كتابه لزيادات الزبيدي على القاموس، فنقل ما قدمنا عن شلاش دون تعليق[*] . وأحسن صنعًا عندما أفرد ملحقًا للمعجم اليمني في التاج وفي التكملة معًا[**] . فإذا هي (٥٤) أربع وخمسون كلمة، منها (٢٥) خمس وعشرون استدركها على القاموس من (لسان العرب) لابن منظور تصريحًا. وبقي إجمالي ما سمعه (٢٠) عشرون كلمة، يهمنا أنها ليست من المنطقة التي بقيت فيها اللغة فصيحة إلى عهده، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم نجد العالم المدقق عبد الفتاح سليم لا يدقق عند هذين الخبرين. قال: «ولم نعثر على نص يثبت خلوص لغة الأعراب فيما وراء القرن الرابع، اللهم إلا ما جاء في معجم البلدان (...) قال: وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم (...) وجاء عن

---

(١) [هاشم طه شلاش: الزبيدي في كتابه تاج العروس، بغداد: دار الكتاب للطباعة ١٩٨٠م ص ٢١٥]. فإذا تأملنا في الحكم لم نجد إلا تصحيحه (استأهل) اعتماداً على ما جاء في اللسان عن الأزهري ثم الزمخشري، وأنه سمع ذلك من أعراب الصفراء في اليمن. ولم يتطرق البتة إلى ذكر المنطقة التي قال فيها: (إلى اليوم). فتأمل .

(*) فريد عوض حيدر: دراسة لغوية لزيادات الزبيدي واستدراكاته على القاموس المحيط، القاهرة: مكتبة الآداب ٢٠٠٥م، ص ٤٣-٤٤ .

(**) فريد عوض حيدر: دراسة لغوية.. ص ٢٩٢ - ٢٩٣

الفيروزآبادي ما يفيد أن هؤلاء باقون على فصاحتهم حتى القرن التاسع، بل جاء عن شارحه مرتضى الزبيدي ما يفيد امتداد عصر فصاحتهم حتى زمنه سنة ١٢٠٥هـ. قال الفيروزآبادي (...) وزاد الزبيدي ...»[١].

وواضح أن عبد الفتاح سليم استفاد من محقق الخصائص. غير أن لنا ملاحظات على كلامه، فهو يقول (خلوص لغة الأعراب). وهؤلاء ليسوا أعرابًا بل أصحاب مدر. وهو يعبر عن امتداد زمن الفصاحة إلى أيام الزبيدي فقال: (زمنه سنة ١٢٠٥هـ)، وهذا ليس زمن التأليف بل زمن وفاة المؤلف شارح القاموس. وبالتأكيد لم يعرف منشأ هذه الأسطورة، بل تلقاها بالقبول.

ويأتي اللغوي الجليل نهاد الموسى فيذكر أن التطور الجاري على العربية المنطوقة جعل لهجات الخطاب جميعًا تطرح الأعراب، وأن هذا لم يقتصر «على أهل الأمصار التي تأثرت بالاختلاط تأثرًا مباشرًا، فإن لهجات الأعراب الذين لم يخرجوا إلى الأمصار وبقوا في الجزيرة فقد فقدت الإعراب بالتدريج أيضًا»[٢]. ثم يذكر في الهامش قول الثلاثي: الفيروزآبادي والزبيدي وياقوت. ويعقب: «إذا صح ذلك كان الشاذ الذي يؤيد القاعدة. ولكن هذه الظاهرة الفريدة تستحق أن تجرد لها بعثة لغوية؛ لأن التحقق منها يساعد في جلاء مسائل على درجة بالغة الأهمية في علم اللسان البشري، وعلم اللسان العربي وتاريخه. وخاصة أنها ظاهرة في الجنوب المقول فيه: إنه لسان مغاير للسان العربي في الشمال»[٣].

---

(١) عبد الفتاح سليم: اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٩، جـ١ / ٢٦٨.

(٢) نهاد الموسى: التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، عمّان. دار الفكر ١٩٨٧م، ص ٧٢.

(٣) نهاد الموسى: التحول إلى الفصحى، ص ٧٢ هامش (٣).

سنجاري نهاد الموسي في رغبته للتحقق من هذه (الظاهرة الفريدة) مع إيماننا بأنها أسطورة أسسها شاعر مفاخر لأقرانه. وأول ما نجده الاضطراب في مواقع الأماكن التي ذكرها عمارة ومن نقل عنه دون أن يسميه؛ فليس في اليمن لا قرب زبيد ولا بعيداً عنها ما يسمى مرطان / مرطانة، ولا وادي وساع، ولا عكوتان/ عكوتين .

وأما (عكاد) بفتح العين وضمها فهي «قرية بالقرب من ميدي في محافظة حجة»[1] وفيها عامية أمين مستغلقة .

وأما (الزرائب) فهي: «بلدة خاربة في تهامة الشمالية بجوار جبل العكوتين، فيها دارت المعركة الفاصلة بين جيش الملك علي الصليحي وبنو نجاح الأحبوش سنة ٤٥٠هـ... وفي الزرائب مولد عمارة»[2] (هكذا).

ينقل محقق تاريخ اليمن عند ذكر عمارة فصاحته وقومه - بالتسليم - ما ذكره القاموس والتاج، ويعلق بما يلي: «خبرني الأخ قاسم ناصر من (مدينة جازان) أن أهل الجبلين المذكورين [يقصد جبلي عكاد المذكورين في الشعر وعند عمارة] لازالت (هكذا) لغتهم في الفصحى إلاّ بعض الشيء بحكم الاختلاط. وعكوتان وعكاد والزرائب من وادي بيش بالمخلاف السليماني»[3]

فها قد اتضح أن هذه المواضع جميعًا، إلا ما لا وجود له، بينها وبين زبيد مسيرة ما بين أسبوع إلى خمسة أيام. وأما ما نقله المرحوم قاسم ناصر للمرحوم المحقق فلا يعاج عليه؛ لأن مفهوم (الفصاحة) غير واضح عند الأخير، أهي

---

(١) إبراهيم المقحفي: معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء: دار الكلمة جـ٢ / ١١٠٠، أي بينها وبين زبيد مسيرة خمسة أيام على الأقدام .

(٢) معجم البلدان والقبائل جـ١ / ٧٣٨

(٣) تاريخ اليمن لعمارة ص ١٢٦ هـ المحقق .

المحافظة على علامات الإعراب الأصلية والفرعية؟ أم إن مخارج الأصوات عند هؤلاء كما قرره علماء التجويد نقلاً عن النحاة؟ أم إن بعض المفردات دلالتها عندها كما في المعاجم القديمة؟ فإن كانت الأخيرتان فهما متوافرتان في كثير من اللهجات الحديثة داخل اليمن وخارجها. أما الأولى فلا .

قال القدماء: «إذا كذبت فكن ذكوراً». والمرحوم عمارة يقول في كتابه: إن معركة دارت بين جيش المكرم الصليحي وجيش النجاحيين، في نفس منطقته، ومنادي جيش المكرم ينادي بأن «الجلدة السوداء تعم العبد والحر، ولكن إذا سمعتم من يسمي العظم عزمًا فاقتلوه فإنه حبشي، ومن سماه عظمًا فهو عربي فاتركوه»[1] .

❁❁❁

(١) تاريخ اليمن لعمارة، ص ١٣٤